

في الأدب الفرنسي

٤ - الدوق دي لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

ومن يوم ان غشى صالون المركيزة دي سايليه ، شعر بعيل شديد الى كتابة الحكم والمواعظ ، وبذ في هذا النوع من الأدب ربة البيت وذاك إسبريه . وهذا أول نجاح صادقه في حياته وبمث السرور في دخيلته . وكان من القواعد المألوفة في هذه المجالس أن الانسان إذا أراد أن يكتب للجمهور ، وجب عليه أن يستنير بزأى زملائه . وقد ذكر ذلك سجره فقال : « كان من الواجب على الذين يكتبون للجمهور أن يطلعوا أصدقاءهم على ما يكتبون لأصلاحه وتهذيبه . وقد اتبع الدوق دي لاروشفوكو هذه القاعدة في مذكراته وفي مواعظه . فكان يرسل الى ما يكتبه ويسألني أن أحفظ بالكراسات خمسة أو ستة أسابيع حتى يتسنى لي إتمام النظر فيها . ومن هذه المواعظ ما تغير أكثر من ثلاثين مرة »

وكثيراً ما كان يستشير المركيزة ويسألها أن تبدي رأيها فيما يكتب ، وما جبت ذلك أنه كتب إليها في أحد الأيام يقول : « لا يصح أن تسمى هذه المواعظ بهذا الاسم إلا إذا وافقت عليها . إنك لا تستطيعين إنكارها ، لأن الكثير منها يرجع إليك » . وقد بلغ من اهتمام المركيزة بهذه المواعظ أنها نقلها وأطلعت عليها كثيراً من أصدقائها في غيبة المؤلف وجمت آراءهم في أسلوبها ومعاتبها .

وقضى عام ١٦٦٤ في مراجعة كل مواعظه وتهذيب أسلوبها وعارنه على ذلك جاك إسبريه والمركيزة دي سايليه . وفي عام ١٦٦٥ ظهر الكتاب ، أي في السنة التي ظهرت فيها قصص لافونتين المشهورة . وهذا الشاعر سيكون موضوع حديثنا في المقال الآتي وعقب نشر هذه المواعظ ، أجهت المركيزة الى العبادة وتوددت الى اللوحة دي لوجيفيل ، فأعرض عنها لاروشفوكو بعد هذه الصلة الوثيقة التي استمرت خمسة أعوام . ثم شاء القدر

أن يقضى أعوامه الأخيرة في هدوء وسعادة ، نساق إليه الكونتس دي لا فايت (١) تخلص له الورد والوفاء وتهدهد نفسه الحزينة في شيخوخته

وفي عام ١٦٦٧ خاص غمار الحرب لآخر مرة في حصار ليل على الرغم من مرضه . ثم اشتدت عليه وطأة الداء فكف عن زيارة البلاط وراض نفسه على أن يقضى بقية أيامه في الراحة العذبة بجانب صديقه التي شهد لها بوالو (٢) بالفوق في الأدب والنبوغ في الكتابة

وكان يجتمع في بيته الكتاب والشعراء . فكورني قرأ في صالونه قصة (بولشيري) ، وراسين (٣) قصة (اسكندر) ، وبوالو كتابه (الفن الشعري) ، ومولير (٤) (النساء العالقات) هذه الكوميديا المشهورة التي قيل في ذلك الحين إنها سخرية من مدام دي سفتنيه ومدام دي لا فايت .

وشغل أعوامه الأخيرة في تنقيح كتابه الصغير «مواعظ» . فالطبعة الأولى في عام ١٦٦٥ وبها ٣٠٧ مواعظ ، والطبعة الثانية في ١٦٦٦ وبها ٣٠٢ مواعظ ، والثالثة في عام ١٦٧١ وبها ٣٤١ مواعظ ، والرابعة ١٦٧٥ وبها ٤١٣ مواعظ ، والخامسة في عام ١٦٧٨ وبها ٥٠٤ مواعظ ، وفي هذه السنة الأخيرة نشرت حكم المركيزة دي سايليه وكتاب جاك إسبريه « شوائب الفضائل الانسانية »

وماتت زوجته في عام ١٦٧٠ فعاشت معه مدام دي لا فايت لا تفارقه إلا لماماً ، وبفضلها خفت لهجة المواعظ القاسية في سبقي عام ١٦٧١ وعام ١٦٧٨ . ويصح أن نطبق عليها جملة الشاعر الألماني الأكبر (جوت) التي قلها عن (مدام دي ستيل) « إنها تحيل المرارة الى عذوبة » . ساعده على تنقيح مواعظه ،

(١) ١٦٣٣ - ١٦٩٣ أديبة فرنسية خصبة الخيال رائدة الأسلوب،

ولها آثار أدبية كثيرة قيمة أهمها قصة « الأميرة دي كليف »

(٢) ١٦٣٦ - ١٧١١ شاعر فرنسي عظيم وناقد شديد الرأي نزيه الحكم . وكان الشعراء والكتاب في عصره يحشون قده . وأشهر مؤلفاته (الفن الشعري)

(٣) ١٦٣٩ - ١٦٩٩ . شاعر فرنسي عبقري بلغ قمة المجد الأدبي بتراجمه الشعرية الخالصة

(٤) ١٦٢٢ - ١٦٧٣ . أحد شعراء فرنسا الخالدين . وكوميدياته

الشعرية في غنى عن التعريف

المشهور لملاجه، ولكن الطب عجيز عن قهر المرض . وفي ١٥ مارس كتبت مدام دي سفنييه الى ابنتها تنبئها بحالة الدوق وتظهر لها إعجابها بهدوء نفسه واطمئنانه الى لقاء الموت

وفي يوم ١٦ مارس استوفى أنفاسه ليلا بين ذراعي بوسويه (١)، وهو في السابعة والستين من عمره، أي بعد موت الدوقة دي لونيغفيل بعام، وبعد نشر قصة مدام دي لاقايت «أميرة دي كليفي» ببادين، وقد خلف لأولاده ديناً كبيراً على الرغم من ثروته الهائلة . ولكن ابنه الأكبر فرنسوا السابع نال بحكمته عطف الملك وحبه، وأصلح بعموته ما أفسده أبوه

صفاته

ذكرنا في تاريخ حياته أنه وصف نفسه كتابة في صالون الأنسة دي موبانسييه، ونشر هذا للقال عام ١٦٥٩، فكان أول عهد الجمهور بأثار هذا الكاتب الأدبية . وقد استهله بوصف دقيق لقامته وشعره ورأسه وأسنانه، ثم قال : « يحمل وجهي حمة الحزن وطابع العزة، وهذا ما يجعل الناس يمتقدون خطأ أن من طبعى ازدرامم . ومزاجي تستقر فيه الكتابة وتألفه، ولم يرفى أحد من الناس أضحك أثناء ثلاثة أعوام أو أربعة إلا ثلاث مرات أو أربع، ويخيل الى أني كنت أحتمل اكتاب مزاجي وأجد فيه بعض الراحة والهدوء لولم يستطب صحتي اكتاب آخر يملأ تخيلتي ويستبد بفسكري، ويجعلني أقضى جيل وقتي إما صامتاً حلاً وإما متكلماً دون أن ألقى بالي الى ما أقول »

وليس من العسير أن نجد سبب هذا الاكتاب الآخر، فان ذكريات الحرب الاهلية تركت في نفسه أثاراً البيا، وولدت في دخيلته الاكتاب الباطني الذي غمر « مواعظه » فبدت للناس قائمة حزينة .

من مصادره

يتبع

وساعدها على كتابة قصصها وعلى الأخص قصتها المشهورة التي خلخت ذكرها وهو « الأميرة دي كليفي » . وقد اعترفت بذلك وقالت « استفدت من عقله، ولكنني أصلحت قلبه » . أصلحت قلبه لأنها أخلصت له الحب وهيأت له أسباب السعادة وفي شهر يونيو عام ١٦٧٢ جرح ابنه الأكبر في موقعة الرين جرحاً بليغاً وقتل فيها ولده الرابع والكونت دي سان بول ابنه غير الشرعي من الدوقة دي لونيغفيل، فاتبه حزن أليم . وذكرت مدام دي سفنييه هذه الحادثة لابنتها في إحدى رسائلها « كنا عند مدام دي لاقايت لما بلغه ما أصاب أولاده، فسالت دموعه من أعماق قلبه على خديه . . . رأيت قلبه عارياً في هذا الظرف القاسي فعرفت فيه قلب رجل شجاع ثابت الجنان راجح العقل وافر الخنان »

ولما ماتت أمه في عام ١٦٧٨، وكان يحبها حباً شديداً، كتبت مدام دي سفنييه الى ابنتها تقول : « رأته يبكي في حنان جعلني أعبه »

وبكأثره أولاده وأمه شيء عادي لا يستحق الذكر . وإنما ذكرته مدام دي سفنييه لأن الناس اعتقدوا أن هذا الرجل الذي أنكر العواطف الانسانية في كتابه، غليظ القلب عار من العواطف، فأرادت أن تمحو ما وفر في أذهانهم وتبرهن لهم على خطأ اعتقادهم

وذات مرة فاجأته مدام دي سفنييه « متلبساً بالحنان » إذ سمع قصة تدل على الشجاعة ونبيل العاطفة في أشد المواقف هولاً فبكي . وفي هذا تقول : « إنه يبكي نفسه بإعجابه بنبيل هذه العاطفة » وأوحت إليه هذه القصة لإحدى مواعظه : « يشعر الانسان بأن له نصيباً في الأعمال الجميلة إذا مدحها بقلب خالص »

وقبل موته بقليل عرض عليه (هو به) أحد معلمى ولى العهد للدخول في مجمع العلماء، فاعتذر من القبول بالمرض . ولكن (هو به) يقول في مذكراته ان سبب رفضه يرجع الى خجله

استبد في حضرة الجمهور

وفي أوائل شهر مارس عام ١٦٨٠ استبد به إنداء، فعاده جميع الأطباء التائبين، ثم دعى (البارت) الطبيب الانجليزي

(١) ١٦٢٧ — ١٧٠٤ تيسى فرنسي نال إجازة الدكتوراه في اللاهوت في عام ١٦٤٨ وأهدى رسالته الى الأمير دي كونديه واشتهر بالحظبة الوثيقية التي تملك على السامع وجداته وتضمه بالنور . وله مؤلفات دينية قيمة فيها جمال التعبير ودقة البحث واستقامة الفكر